الصعلكة والفتوة فى الاسلام

تأليف الدكتور أحمد أمين بك

للاستاذ عبد العزيز محرم

نحن فى حاجة إلى مثل هذه الكتب أو الكتيبات التى ترسل أضواء كاشفة على بعض المعانى التى ورثناها عن القرون الماضية، فهذه المعانى هى الميراث الدائب فى دمائنا، يوجهنا ويرشدنا ويوحى إلينا. وكل أمة تعرف ما اختلج فى ضميرها، وما استقر فى أعماقها، وما يبعثها دائما إلى أنواع معينة من السلوك، تسترشد فى طرائق الحياة الصحيحة، لأنها بتجربتها على مدرجة الزمن وانصرام الأعوام، قد عرفت الشىء الكثير عن عوامل الرقى وأسباب الانهيار

ونحن الآن فى زمن تتلفت فيه كثيراً إلى الماضى نسترشده ونستلهمه، ونسأله العون والتوفيق. وإذا عرفنا معانينا الموروثة، وأخلاقنا الكريمة، ومثلنا الرفيعة، وما طرأ على كل ذلك من عوامل تقدم أو من عوامل نكوص، استطعنا أن نتبصر فى موقفنا الراهن وحياتنا الحاضرة

وليس على وجه التاريخ أمة عاشت منقطعة عن ماضيها، بل الحياة دائما مستمدة من ميراث الماضى، ومن ضرورات الحاضر، ومن آمال المستقبل. والأمم والأفراد فى هذا المجال سواء. واليوم وليد الأمس. والغد وليد اليوم وحفيد الأمس. والأمة التى تتنكر لماضيها لا تتمكن من السير ولا تتمكن من الرقى. وقد تندفع إلى مهاوى الضلال والدمار

على هذا الأساس نرحب بكتاب « الصعلكة والفتوة فى الإسلام » لأنه يكشف لنا عن بعض تقاليدنا وآدابنا ومعانينا التى ورثناها عن أجدادنا السالفين، ولأنه يضع أيدينا على مواضع الرشاد ومواضع الخيبة فى حياة هؤلاء الأجداد، ولأننا بهذا نستطيع أن نرسم لأنفسنا طريقاً لاحباً، يوصلنا إلى أهدافنا، ويدفعنا إلى غاياتنا، ويستشرف بنا إلى حياة رفيعة مأمولة، ويخلصنا من إصر ما نحن فيه الآن من انحلال وضعف وتخاذل وذلة

وقد ذكر الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك معانى الفتوة. فقال إنها الشباب. وقال إنها القوة. وقد تلونت الكلمة بلون البيئة، فإن إنسانا قد يرى فى الفتوة أنها كرم وشجاعة كطرفة ابن العبد، وقد يرى غيره أنها العقل والفصاحة والرزانة كزهير، وقد يرى ثالث أنها كتمان السر وعدم البوح به كسكين الدارمى

ويرى الدكتور أن الفتوة أثر الغنى، وأن الصعلكة أثر الفقر، ومن فتيان الجاهلية طرفة بن العبد وامرؤ القيس. ومن صعاليكها السليك بن السلكة، وعروة بن الورد، والشنفرى، وتأبط شرا. وهؤلاء كانوا فقراء صعاليك. وطرفة وامرؤ القيس كانا فتيين من الفتيان

واستعرض الدكتور مثل الصعاليك ومثل الفتيان استعراضا تاريخيا تحليليا من العصر الجاهلى، إلى عهد الخلافة الرشيدة، إلى العهد الأموى، إلى العهد العباسى، إلى أزمنة المماليك، إلى العصر الحاضر فى مصر. وبين الآداب الرفيعة والتقاليد الرائعة للفتوة والصعلكة. وبين كذلك ما لحقهما من ضمور وهزال وشوائب أضعفت من أثرهما، وقللت من شأنهما فى بعض الأوقات

وقد استشهد بكثير من الأشعار فى العصر الجاهلى على ما يقول. أو هو قد استخلص كثيراً من معلوماته فى هذا الموضوع من أشعار الجاهليين. فذكر شعراً لطرفة. وذكر شعراً لتأبط شرا. وذكر شعراً للشنفرى. وذكر شعراً لعروة ابن الورد

وعروة بن الورد هو المثال الرفيع للصعلكة الجديرة بالتقدير والاحترام. إذ كان اشتراكيا بكل ما تحمل الكلمة من معنى. وكان يثير على الأغنياء البخلاء ليرد أموالهم على الفقراء المحاويج.

فهو لم يكن يثير الغرض ذاتي ؛ بل لغرض تهذيبي. وآخر اجتماعي. الغرض التهذيبي أن يؤدب هؤلاء الأغنياء الذين يضنون بأموالهم ورفدهم على المحتاجين والمساكين . والغرض الاجتماعي أن يسول كثيرا من الذين يعجزون عن الكسب لمرض أو شيخوخة أو عجز . أما هو نفسه فلم يكن يظفر من غنائمه ولا من نهبه بأكثر مما كان يظفر به شيخ قعيد أو عاجز ضرير

« فهو فقير يتحسس أخبار الأغنياء، فمن وجده كريما سخيا خلاء ، ومن وجده شحيحا بخيلا غزاه ، وفرق ما جمعه على زملائه بالعدالة لا يرضى بشيء لنفسه إلا برضاهم . فشأنه مثل برناردشو في إحدى رواياته إذ هاجم قوم سيارة فخمة يركبها أغنياء مرابون . فقال المهاجمون ، نحن سراق الأغنياء ، وأنتم سراق الفقراء . وكما فعل تولستوي إذ كان غنيا واسع الغنى ، فوزع ثروته على فلاحيه وعاش فقيرا . غاية الأمر أن عروة هذا سبقهما في النبل بنحو ألفي سنة

« والخلاصة أننا نرى في الحياة الجاهلية البدوية نوعين متميزين من الشبان : (أبناء الذوات) ، قد يجتمعون ويتخذون لهم محلا مختارا ، ويعيشون عيشة إباحية ، فيها خمر ، وفيها غناء ، وفيها نساء . وهم مع ذلك كرام ، يضيفون من نزل بهم ، ويغدقون عليهم من خيرهم . وتقابلهم طائفة أخرى من أبناء الفقراء يسمون الصعاليك ، يشاركونهم في الكرم والاشتراكية ، ويخالفونهم في أن حياتهم ليست حياة دعة واستمتاع ، ولكن حياة غزو وسلب ونهب ، وتوزيع المال على أمثالهم . يضاف إلى ذلك فرق آخر وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون ، والصعاليك يعطون ما يعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم متساوون . وإن شئت فقل إن الفتيان يعطون ما يعطون عطفا وتفضلا ، والصعاليك يعطون ما يعطون أداء لما يرونه واجبا »

وفي عهد الخلافة الراشدة ارتفع الدين بمعنى الفتوة . ورفع الإماء والعبيد إلى مقام الأحرار ، فسيدنا إبراهيم في حجاجه قومه فتى ، وأهل الكهف فتية آمنوا بربهم ، والعبد والأمة ليسا عبدا ولا أمة ، إذ (لا يقول أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي) ولا يجوز أن تكرهوا (فتياتكم على البغاء)

وعلى العهد الأموي نجد نكوصا إلى فتوة امرئ القيس وطرفة بن العبد . وهي فتوة الخمر واللهو والسكوف على الغناء . وقد يكون فيها إكرام الناس وقرى للضيف وإيواء الغريب . وقد يكون من هؤلاء الفتيان اللاهين من يخرج للصيد والطرد بعدده وآلاته ، وهذه الفتوة الموروثة جاهليا ، المبعوثة أمويا ، تأثرت بما أخذه الفتيان من الفرس من اللعب بالبندق، وهو كرات صغيرة من طين أو حجر أو رصاص يرمى بها من قوس لصيد طير أو نحوه . ثم حشيت بالبارود . ومن هنا سميت البندقية

وكما كانت الفتوة في العهد الأموي متأثرة بفتوة طرفة وفتوة الفرس ، كذلك كان بعض ألوان الفتوة في العهد العباسي . ونجد لونا آخر وهو فتوة التصوفة ؛ وفي هذا يقول محيي الدين بن العربي :

إن الفتوة ما ينفك صاحبها ... مقدما عند رب الناس والناس
إن الفتى من له الإيثار محلية ... حيث كان فمحمول على الراس
ما إن تزلزله الأهوال قوتها ... لكونه ثابتا كالراس في الراس
لا حزن يحكمه ، لا خوف يشغله ... عن المكارم حال الحرب والباس
انظر إلى كسره الأصنام منفردا ... بلا معين . فذاك الفتى القاسي

وفي البيت الأخير إشارة إلى فتوة إبراهيم عليه السلام

وكذلك نجد في العهد العباسي لونا ثالثا من الفتوة وهو فتوة العيارين والشطار ، وكانت تستخدم في السلب والنهب. وثمة لون رابع من الفتوة ، وهو الفتوة المنعقدة بين جماعة لسبب ما كغربة ، وكما حدث من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في عهد النبوة الكريم. وهناك فتوة الإسماعيلية كالحسن الصباح وفتيانه ، وأيضا فتوة الحروب الصليبية كصلاح الدين الأيوبي ، وأسامة بن منقذ ، ونور الدين محمود بن زنكي

وقد تأثرت الفتوة في العصر العباسي بفتوة الفرس وفتوة الترك ، علاوة على تأثرها بالفتوة العربية ، وعلاوة على تأثرها بالعناصر الدينية

ومن ميزات الفتوة أنها « تتضمن الشجاعة ، والانتهاء بأعمال البطولة ، والكرم والسماحة والمروءة المقدرة ، واحترام المرأة ، ووفاء العهد وحماية الضعفاء » ، وكذلك يكون الفتى

معروفاً بالسخاء والشجاعة ، والزهد والعبادة ، وإطعام الطعام للمساكين ، وإكرام العلماء والفقهاء ، وحسن السيرة وصدق الحديث . قليل الكلام ، لا يسمع منه أحد كلمة كذب ولا غيبة . لا يخوض فى كلام لا طائل تحته ، آمر بالمعروف ناه من المنكر »

وأنت ترى أن هذه الصفات الكريمة والأهداف النبيلة لم تتحقق فى كل ألوان الفتوة التى ساقها الدكتور أحمد أمين بك ، وهى إن تحققت فى الفتوة الدينية ، أو الفتوة الصوفية ، أو فتوة صلاح الدين وأسامة بن منقذ ، فهى قطعاً لم تتحقق فى فتوة العيارين والشطار ، ولا فى فتوة العابثين اللاهين

ولهذا كان من الأجل أن تحدد ألوان الفتوة بالنظر إلى أهدافها ، فقد يهدينا هذا إلى معرفة الفتيان حقيقة هؤلاء الذين يجمل بهم وبنا أن نذكرهم دواما ليكونوا أمثلة للهداية والنور والحق الطهور . وبهذا نحفظ مقاماتهم ، ونذكرهم عند الاقتران بهذا الخليط العجيب من الفوضى والإباحة الذى انساق إليه كل لاه عابث مغلوب . وبهذا نضع كل إنسان فى مكانه من الفتوة الصادقة حتى نربأ بصلاح الدين وأسامة بن منقذ ومحى الدين بن العربى عن دنس قرنهم بالعيارين والشطار فى إطار الفتوة . وحتى نحفظ لهذا الاسم الجميل معناه الجدير بالاحترام والتقدير

ولم يذكر المؤلف فتوة المسلمين الأولين فى العهد الرشيد التى تمثلت فى فروسية الفاتحين كأسامة بن زيد ، وخالد بن الوليد ، وعلى بن أبى طالب

ويبدو أنه لم يكن من اللازم ، فى هذا العصر الرشيد على الأقل ، أن يكون الفتى فى سن الشباب . والمثال على ذلك قصة إبراهيم التى كسر فيها الأصنام ، والتى أحرقوه بسببها ، والتى سموه فتى فيها . ومن سياق هذه القصة — كما وردت فى سورة الأنبياء — نعرف أنها بعد بعثته ونبوته ، أى بعد الأربعين ، وهى السن التى يرسل فيها الرسول إلى قومه . وليس من السائغ أن نقول إن الإنسان نبيا أو غيره ، فى هذه السن ، يكون فى شبابه . بل هذه فاتحة الكهولة التى يستحصف فيها العقل وتصفو النفس

وحين ننتقل إلى العهد الأموى نجد مؤلفنا الجليل لم يذكر الخوارج . وقد كانوا من الفتيان حقا وصدقا . وقد وهبوا كل ما يملكون لبدئهم الذى رأوه حقا وصوابا

ولم يذكر أيضا فتوة أشياع على والحسين ، مع أنهم خرجوا على ملك بنى أمية المغصوض راجين رد الحق إلى نصابه ومصادره ، ولقوا فى سبيل ذلك القتل والتمثيل والتشريد

وذكر الدكتور المؤلف فتوة المماليك ؛ ولكن يهمنا نحن المصريين هذه الفتوة التى تجلت فى موقفين رائعين : الموقف الأول هو انهزام الصليبيين أمام المماليك والمصريين فى المنصورة . والموقف الثانى هو تفرق التتار فى عين جالوت أمام المماليك والمصريين أيضا . وهاتان الموقعتان حفظتا العالم الإسلامى من الضياع بفضل فتوة المماليك الزائلة

وعرض المؤلف للإخوان المسلمين ، وهم جماعة أكثر أنباعها من الشبان المسلمين . بدءوا أمرهم بتعليم الشبان الفضائل من طريق الدين . والحق أن الناظر إليهم كان يراهم أميز من زملائهم من حيث القوة والرجولة والتخلق بالأخلاق الحسنة . ثم دفعتهم الظروف المحيطة بهم أن يتحزبوا . فتظاهروا . وأيدوا الحكومات أحيانا وعارضوها أحيانا تبعا للتعليمات . ثم تطوروا تطورا آخر ، فكان منهم محاربون ، وكان منهم فدائيون

ومن رأى الدكتور أن الإخوان ضعفوا عما كانوا عليه . وفى رأيه أن قتل الشهيد حسن البنا كان جزاء وفاقا لما فعل الإخوان من قتل المرحوم النقراشى . وقد تكون للتاريخ كلمة غير هذه الكلمة حين تنجاب الحجب من الألغاز الاستعمارية والأحاجى السياسية ، وحين يعرف الناس لماذا شرد وعذب واعتقل شباب مسلمون لا هم لهم إلا نصرة دينهم على المستعمر الغاشم ، وإلا نصرة دينهم على الانحلال والرأسمالية البغيضة

لقد كانت رحلة شائقة من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث أفدت منها كثيرا ، واستمتعت كثيرا ، وعرفت ما لم أكن أعرف من وجوه الكرامة والرجولة والفتوة لدى هؤلاء الأماجد الأبطال الذين تنافق الدنيا ولا تنافق مصابيحهم . فشكراً المؤلف الفاضل . وشكراً للفرص المواتية

محمود عبد العزيز محرم